علم النفس والمجتمع

بقلم عبد الرسول الصراف

يحلو لبعض علماء النفس وكتاب الأدب النفسي ان يعللوا الحياة الفردية تعليلاً نفسياً بحتاً وهم يغضّون الطرف عن المشكل الأكبر ، اعني بيئة الفرد ونوعية الأنظمة التي يخضع لها والتي عليها تقع مسؤولية اتجاهاته النفسية وما يصاب به من عقد نفسية و « مركبات » مختلفة تسير به نحو الهاوية. وحين يصف اولئك الدواء لهؤلاء التعساء تكون وصفاتهم عبارة عن « ايحاءات » ... وذلك بعد اجراء التحليلات النفسية بطرقهم الخاصة .. وهم يدّعون بعد ذلك ان الشفاء متوقف على المريض بالدرجة الأولى وعلى طبيبه النفساني المعالج ! وبذلك يوهمون بسطاء المثقفين ان كل شيء سيكون على ما يرام ...

إن العلاج المذكور هو الشائع لدى الغالبية العظمى من رجال علم النفس ، وهو اتجاه اقل ما يمكن ان يقال عنه انه تعليل مغلوط للمشاكل النفسية .

إن اصلاح الفرد نفسياً مرحلة ثانية ، وليست اولى كما يزعم الزاعمون . فيجب قبل كل شيء تدارك البيئة واصلاحها .

فالمشكل النفسي لا يحل بالأوهام وغالباً ما تكون الأمراض النفسية وهمية ، فمداواة الواهم بالأوهام ضلال في ضلال !

ان العنصر الخطير في القضية النفسية هو المحيط والبيئة، وإن البيئات المتأخرة ثقافياً وسياسياً واقتصادياً والأفراد الغارقين في اوحال مثل هذا المجتمع التعيس الذي تطغى عليه الأنانيات الفردية والتسابق في الاقتناء والتملك والتحاسد والعداوات ، المجتمع الذي تفتقد فيه روح التعاون والتآزر ، مجتمع الطموح الفردي لتحقيق اغراض ذاتية عمياء ، المجتمع السائب من الناحية الاقتصادية، مجتمع هذه خصاله ليس من الغريب ان يخلق افراداً ميزتهم كميزاته : العقد النفسية وفقدان الثقة سواء بالنفس او بالآخرين ومختلف الأمراض النفسية التي تجعل من حياتهم جحيماً لا يطاق وتسدل على مستقبلهم استاراً كثيفة من الظلام والتشاؤم !

فاصلاح الفرد نفسياً مرحلة ثانية وليست اولى كما يزعم الزاعمون . اذ يجب اولاً وقبل كل شيء تدارك البيئة واصلاحها اصلاحاً حقيقياً لخلق افراد صالحين، وان بقي من يشكو مرضاً نفسياً بالرغم من ذلك فمداواته عن طريق قواعد علم النفس التطبيقي امر مرغوب فيه . ولا شك ، في هذه الحالة من الاطمئنان ، بشفاء المريض شفاء تاماً والوثوق من عدم انتكاسه لأننا سنرجع به الى المجتمع الذي لا يسبب له ايما عقدة نفسية ، مجتمع الرخاء الأقتصادي والتعاون والضمان والمحبة والعدالة .

قد يتصوّر السطحيون ان ذلك خيال محض واوهام مثالية ولكن الحقيقة عكس ذلك تماماً ؛ فالحل الحقيقي والواقعي للمشكلة النفسية هو ما قدمت ، ولكن ذلك لا يعني هدم الاسس العلمية لعلم النفس اذ لا غنى لمن يحل في مجتمع متأخر عن الاستعانة بها ؛ ولكن من الخطأ الفاضح الركون اليها كحل اساسي للمشكلة .

فلو فرضنا ان فرداً شفي بواسطة التحليل النفسي والعلاجات النفسية ، فانه حين يرجع الى تلك البيئة وذلك المجتمع المتفسخ، معرّض دون ريب الى استعادة تلك العقد والامراض النفسية او استبدالها بسواها !

ان الاغلبية الساحقة من علماء النفس تعطي الاولوية للعلاجات النفسية ، والاغرب من ذلك خروج الامر من ايدي علماء النفس ومتدارسيه ، الى ايدي كتاب الادب النفسي ، الذين يشتطون في بحوثهم ويجعلون من علم النفس وسيلة لترويج نتاج اقلامهم او لتقديم النصائح والتوجيهات ، على شاكلة الادعية والطلاسم المغرقة في الخيال ، وهم بعد هذا يزعمون انهم من صميم الواقع !

لي صديق مثقف ثقافة عالية متبعة بدراسات وقراءات قيمة ، وهو على اتصال مستمر بالمكتبات والجديد من الكتب والمجلات ولكنه – مع الاسف – يشكو البطالة ، والاملاق وهو – بطبيعة الحال – يعاني امراضاً نفسية وعقداً خطيرة ، فهو يشعر بـ « مركب النقص » او ما يسميه كتاب علم النفس

« بالدونية » وبآلام نفسية مزعجة وميل للعزلة والانفراد ،وهو بدلاً من ان يلتمس السبب الحقيقي لجميع هذه المشاعر ويتجه وجهة صحيحة نحو الهدف الأمثل لينقذ نفسه ومن حوله ممن هم على شاكلته ، نراه على العكس يحاول ان يدرس جميع ما خطه كتاب الادب النفسي وكل ما دبجوه من نصائح وإرشادات للوصول الى الصحة النفسية ! وهو عاكف على دراسة « فرويد » الذي يسند جميع ما يشعر به صاحبنا الى اسباب « جنسية » ! وهو يقرأ – على سبيل المثال – « السعادة » و « فن الحياة » و « دع القلق وابدأ الحياة » ! وما الى ذلك ، ومع كل هذا فهو ما زال غير سعيد ولم يتمتع بفنون الحياة ولا تركه القلق ! انه لم يدر ان السبب الجوهري هو في بقائه يشكو العوز والبطالة وعدم تقدير مجتمعه له وعدم مكافأته له بضمان عيشه وذلك في عصر الضمان الاجتماعي وتوفير العمل، فلا الايحاءات ولا النصائح ولا التحليل النفسي بقادرة على ان تنتزع القلق المستحوذ على امثال هؤلاء وتدلهم على طريق السعادة .

بغداد **عبد الرسول عبد المجيد الصراف**